مكتبة البيت

للكاتبة الاجتماعية زينب محمد حسين

يسرنى قبل أن أبدأ كلمتى هـذه أن أقدم لأمتنا العزيزة والى الأمم الشقيقة أطيب التهانى بمناسبة مقدم شهر رمضان المبارك، جعله الله شهر خير و بركة على الأمم العربية والعالم الاسلامى أجمع .

وبهذه المناسبة ، مناسبة شهر رمضان المبارك ، الشهر الذى يحلو فيه السهر والسمر، ويتحبب فيه أرباب البيوت الى منازلهم ، فيقضون فيها أكثر أوقاتهم ، رأيت أن أكتب هذه الكلمة عن شىء هام تستطيع الأسرة أن تستغله فى اجتماعاتها بما يهيىء لها موضوعا شائقا للسمر والحديث دون أن ينفذ الى نفوس أفرادها ملل أو سأم .

لقد عنّ لى أن أكتب عن مكتبة البيت ، لما لها من اتصال وثيق بشغل أوقات الفراغ ، تلك الأوقات التى تطول أيام الصوم . ولعلكم توافقوننى على أهمية الكتابة فى هذا الموضوع الحيوى ، الذى يساهم بقسط وافر فى تربية الأسرة التى هى نواة الأمم وعنوان حضارتها .

فكتبة البيت تستحق منا الاهتمام الدائم بأمرها ، لأنها من الضروريات اللازمة لكل بيت . وليس منا من ينكر فضل الكتب فى إنماء مداركه واتساع آفاق ثقافته .

فطالما أثبتت لنا مكتبة البيت أنها أوفى صديق ، وخير مدرسة ننهل من معينها العذب الذى لا ينضب .

وإنه لمن المدهش حقا أن يدخل الانسان منزل أحد الذين حصلوا على الدرجات الجامعية فلا يجد فيه أثرا لكتاب واحد غير الكتب المدرسية ، بينما نجد أن تأسيس مكتبة البيت فى البلاد الراقية هو أول ما يسعى اليه العروسان عند تهيئة عشهما السعيد .

وحجة أولئك الذين لا يهتمون باقتناء الكتب فى منازلهم هى اكتفاؤهم بما استظهروا من الكتب المحدودة مدة دراستهم اعتقادا منهم أنهم قد اكتشفوا بحصولهم على الدرجات الجامعية كل منابع العلم وألموا بكل وسائل المعرفة حتى لم يبق زيادة لمستزيد ، ومع ذلك

إذا تحدثت اليهم قليلا رأيتهم أحوج الناس الى دخول مدرسة الحياة العظيمة التى تمدنا دائما بأحكم نظرياتها ، وذلك من طريق الاطلاع .

ولقد تكفينا بعض النظرات فى حياة عباقرة الشرق والغرب لكى نعلم أن الفريق الأكبر منهم لم يحصلوا على أدنى الشهادات الدراسية ، ومع ذلك فقد كانوا عباقرة لا يشق لهم غبار .

فمثلا ، "جان جاك روسو" الذى هز دستوره عن التربيـة فرنسا بأسرها فى وقت من الأوقات ، وغير قانونه معتقدات أجيال متوالية ، قـد أنفق حياته بين خادم فى البيوتات وبين عامل فى الحوانيت الصغيرة ، ومع ذلك كان لشغفه بالاطلاع كل ذلك الأثر الذى خلق منه كاتبا فى طليعة كتاب فرنسا ، ومفكرا فى طليعة رجال الفكر .

وهذا " ديسون" مخترع اللاسلكى كان عاملا بسيطا ، ثم بائع جرائد فى القطارات ، ورغم شدة فاقته وعوزه كان يقتصد من طعامه ليشترى كتبا يغذى من سمها روحه الجائعـة ، المتعطشة للعلم والاختراع ، ولم تحل عليه الكتب بمـا أراد حتى صار اسمـه وما زال يتألق فى أفق العلم والاختراع .

" وجوهان ستراوس " الموسيقى العالمى الشهير ، كان كاتبا بسيطا فى مصرف ، وكان جنونه بالموسيقى سببا فى فصله من عمله وتشريده فى مستهل حياته ، ولكن هـذا لم يقعده عن الاستزادة والاطلاع حتى بلغ من أصول الموسيقى ما خلد اسمه على جبين الفن .

وغير هـؤلاء كثيرون من أبطال العلم والفكر والفن من أمثال " مدام كورى " و " لويس باستير " و " داروين " و " بيتهوفن " الذين يفخر بهم الغرب ويعتز بروحهم الوثابة ، وكلهم خلو من الإجازات العلمية والشهادات الدراسية .

وعندنا فى الشرق شـعراء مبرزون وأدباء نابهون وكتاب عباقرة ، لم يدخلوا الجامعـة يوما فيحصلوا على إجازاتها الدراسية ، ومع ذلك فقد استطاعوا أن ينهلوا من ينابيع المعرفة ما مكنهم من تزعم الحركة الفكرية والأدبية ، وأن يكونوا لنا قادة نترسم خطاهم ونعمل بمبادئهم عن طريق كتبهم القيمة وكتاباتهم الفذة التى يغرسون لنا فيها من حدائق خيالهم الرائع ، وبحوثهم الناضجة ، أينع الزهور ، وأطيب الثمرات .

هـذه بعض حقائق أسوقها اليكم للتدليل على فوائد الاطلاع ، وكيف يمكننا عن طريقـه أن نجعل من أنفسنا أناسا نافعين لدولتنا ولوطننا ، وأن يكون المستقبل ملك أيمـاننا .

وليست فوائد مكتبة البيت مقصورة على تكوين العباقرة وأهل الفن فحسب ، بل إن

مزاياها الكثيرة المتعددة لازمة لكل فرد فى البيت ، وخصوصا لربته التى هى منشئة الجيل الجديد ومربيته .

ومن الملاحظ غالبا أن ربات المنازل ، حتى المتعلمات منهن ، ينصرفن بعد زواجهن عن الاطلاع ويرغبن عن الزيادة من المعرفة ، حتى أن بعضهن قد يثيرهن أن يرين من الزوج انصرافا إلى المطالعة فى صحيفة أو كتاب ، ويعتقدن أن هذا يعد من ناحيته عزوفا عنهن ، وامتناعا عن مجالستهن أو محادثتهن . وهذا ولا شك فضلا عما فيه من ظلم كبير للزوج يعد جناية منهن على العلم ، وهو يدل كذلك على تأخر اجتماعى لا يليق بفتاة مصر الناهضة .

وانى أعتقد فوق هذا أن شؤون البيت مهما عظمت وتعددت فهى لن تقف حائلا فى وجه سيدة البيت دون الاطلاع والبحث وطلب المعرفة ؛ فهى تصقل من طباعها أيضا وتهذب من عاداتها ، فتستفيد منها علميا وأدبيا ؛ وعندئذ يمكنها أن تقول بحق انها سيدة كاملة ، لا تستحى نجلا من طفلها إذا سألها مساعدته فى حل مسألة مستعصية عليه ، أو شرح نقطة مغلقة على فهمه ، أو عند ما يسألها عن شأن من شؤون الحياة فلا يجد لديها جوابا شافيا . ولا شك أن هذا يقلل من اكباره لها ، وتقديسه لعظمتها ، ويحطم مثله الأعلى فيها ، فيفقد الثقة بها ، ويشب معتقدا أنها خاوية الوفاض .

ومن الطبيعى أن السيدة التى تباعد بين نفسها وبين المطالعة لا يمكنها أن توفر لزوجها كل أسباب السعادة والمتعة العائلية ، بل تبدو أمامه هيكلا جسديا بلا روح ، إذ يستعصى عليها أن تبادله افكاره أو تسدى إليه رأيا عمليا يستهل عليه تحمل أعباء الحياة ومسئولياتها . ومثل هذه الحياة الزوجية لا يمكن أن تكون كاملة فى كل نواحيها ، بل لا بد من ولوج العناصر الهدامة إلى صرحها شيئا فشيئا . ولو عرفنا أن السعادة الزوجية لا يمكن أن تتوافر بين الزوجين إلا إذا توثقت بينهما الصلة الزوجية والتفاهم الحسى قبل كل شيء ، لعرفنا السبب فى فشل معظم الناس فى حياتهم الزوجية .

ولا ريب أن الرجل يشعر دائما باحترام وتقدير نحو زوجته المطالعة التى لا تخجله يوما بكلمة شاردة أمام الحاضرين .

وها نحن حتى الآن بالرغم من انتشار الثقافة فى محيط المرأة ما زلنا نتوق إلى رؤية الكثير من الفتيات اللاتى يسرهن الحديث عن الأدب أكثر مما تستهويهن أخبار أحدث الأزياء أو أخبار السينما وصوت المسون ايدى وبنى جرابل ، أو النبش فى أسرار الأسر ؛ ولماذا طلقت فلانة أو كيف تزوجت !

وما زلنا نجد بين فتياتنا من تقابل إحدى المهتمات بالمسائل الاجتماعية ، فبدلا من أن تساهم معها أو على الأقل تشجعها بكلمة طيبة على المضى فى أداء رسالتها الانسانية ، نراها تفت فى عضدها ، وتلهيها عن غايتها النبيلة ، بكلمات تؤثر فى نفس الفتاة البريئة الطاهرة لولا ما وضع الله فى قلبها من عطف وشفقة وحنان .

وصفوة القول إن المعرفة لا تنتهى بانتهاء الوقت المدرسى المحدود ، لأن العلم ليست له نهاية ؛ فالعلم ينبوع الحياة ، كلما انتهلنا منه وشفة ، عدنا إليه ونحن أكثر تعطش ، وأشد ظمأ .

والكتب هى فى الحقيقة بمثابة الأصدقاء النافعين ، واختيار الكتب يستلزم ما يستلزمه اختيار الأصدقاء من اليقظة والعناية ، لأن الكتاب السيء يترك فى النفس أثرا سيئا ، بقدر ما يترك الكتاب الطيب أثرا طيبا .

وقد جرى بعض الكتاب مثل " اللورد أفبرى " على وضع قائمة بالكتب التى يحسن اقتناؤها ، غير أن تحديد كتاب بذاته قد يلائم بعض الناس دون البعض الآخر لاختلافهم ثقافة ونزعة ومزاجا ، على أنه يمكن تحديد المواضيع التى نختارها لتكوين مكتبة البيت ، كأن نجمع مثلا بين كتب الفنون الجميلة والتدبير المنزلى ، وقصص الأطفال التى تنمى مداركهم وتبث فيهم ملكة التصور وروح التضحية والإيثار ، وكذلك الكتب التاريخية التى تجمع الى جانب العظة تربية وعلما ومتعة ؛ وكتب الأدب التى تضم المسرحيات والروايات النافعة ، وكذلك اداب اللغات من شعر ونثر ، الى غير ذلك مما يتفق مع ميول كل أسرة واستعدادها ونواحى نشاطها .

على أنى أرجو أن يلاحظ فى تكوين مكتبة البيت ألا تتكدس بالكتب فى أوضاع تسودها الفوضى ، بل يجب ترتيبها وتنظيمها وتبويبها وانشاء فهارس بأسماء الكتب والموضوعات وأسماء المؤلفين ، وتجليد الكتب تجليدا متناسقا .

وانى لواثقة بأن البيت الذى يحوى ضمن أثاثه غرفة للمكتبة على النحو الذى ذكرت ، لهو البيت الأمثل الذى يفخر المجتمع بوجوده ، ويكون عنوانا لنهضة الأمة ، ورمزا لرقى أفرادها .

زينب محمد حسين